

التسلف ومرجعياته الفكرية

يوسف هريمة

باحث مغربي



قسم الدراسات الدينية

على سبيل التقديم:

ينهل الفكر السلفي السنّي من مجموعة من الأصول والقواعد والبنىات التي تؤسس - لمن يتبنى هذا النهج - المسار والفكر والتصورات المختلفة، حول علاقة الإنسان بغيره، أو ما عبّر عنه المرحوم الحاج حمد ثلاثية الإنسان والطبيعة والكون؛ هذه البنى والمرتكزات شكلت ولا تزال مرجعيات في التحاكم عند هذا العقل السلفي السنّي، ومفترقا بين الحق والباطل، وبين الكفر والإيمان، وبين السلم والحرب كما هو متداول في أدبيات هذا الفكر، بأشكال تختلف في المظهر، وتتفق على مستوى الجوهر والمضمون. ليس عيبا أن ينطلق الإنسان من منهج يوطر فكره أو يضبط اجتهاده، أو يؤسس من خلاله لعلاقاته المختلفة. ولكن العيب أن يتحوّل المنهج والبنىات المؤسّسة إلى مفترق يصير فيه الإنسان متألّها في هذه الأرض، يتكلم بلسانه ويوقع باسمه على حد تعبير ابن قيم الجوزية في كتابه: "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، أو يتجاوز تحت أي ظرف من الظروف ملابسات تشكّل الفكر والوعي من ثقافة وتربية ونفس واجتماع، ويصير الفهم أو التأويل أو التفسير أو القواعد خيارات حتمية تقذف بالإنسان إلى المجهول، ولو تلبس بلبوس العلم والمعرفة.

يطرح الفكر السلفي السنّي أمام الباحث أو المتتبع مجموعة من العوائق المعرفية، وهي نتيجة طبيعية وحتمية ما دام النسق الفكري المطروح للنقاش نسقا مغلقا، يطرح نفسه كحقّ مطلق على المستوى الواقعي، وإن كانت هناك محاولات للتعطية على عوار هذا الفكر، ونهله من جذور الإقصاء والإرهاب والعنصرية في الكثير من مستويات بنياته الأساسية. ولا يمكن أن تكون البنى والمؤسسات متجاوزة للبعد الإنساني، دون أن ينعكس هذا الأمر على قضية الإنسان، بصفته مفهوما قيميا تتجلى في أبعاده قيمة الدين نفسه، فمتى حقّق الفكر قيمة الإنسان كان أقرب إلى الحقّ والعدل والكمال. ومتى كان الفكر مغلقا ومستبظنا لكل أنواع العنصريّات، كان إلى التسلط والإرهاب أقرب. ولعلّ الحدث الأبرز في الفكر السنّي سواء ماضيه وتاريخه، أو حاضره وربما مستقبله، هو أنه فكر جامد لم يستطع من خلال البنىات المؤسّسة له أن يطرح نفسه بديلا حضاريا، من خلال الكثير من الدول التي احتضنته بشكل فعلي على المستوى الاجتماعي والسياسي. فظل بذلك عائقا أمام أي تقدم معرفي أو انطلاقة نحو عوالم الكمال، وبقي النص داخل هذا النسق المغلق هو الفيصل أولا وأخيرا. وحينما نتكلم عن النص، فإننا بصدد الحديث عن وثيقة أو رواية تمّ تصحيحها بناء على آليات منقوصة، لا تستطيع حتى أن تؤوّل معناها إلى حيث الأفق الإنساني أو المصلحة أو المقصد. ولكي يضمن الفكر بقاءه لا بدّ له من طوابع ومن ملصقات وعناوين هدفها ممارسة التسلط المعرفي على كل من يبحث أو يسأل، ومن أهم هذه العناوين: "الإسلام دين استوعب الدين والدنيا" "لا يصلح حال الأمة إلا بما صلح به الأوائل"، أو بعبارة أخرى احتواء الدين على كل شيء، وشموليته بالمعنى الذي تنعدم فيه حرية الإنسان وتحركه خارج هذا النسق.

عناوين كبرى يتساءل معها المرء: لماذا يصر هذا الفكر على إغراقنا في الجزئيات، ويترك كلّ ما من شأنه أن يكون مقوما من مقومات حياتنا؟ ولماذا يرتبط هذا الفكر بالماضي وبالموتى يعبدهم ويقدّسهم، ويترك

الحاضر للحاكم الذي اعتبره ظل الله وهو منه براء؟ قد يتلبس الفكر السلفي السني ويتقمص أشكالاً مختلفة وبعناوين متعددة، ولكن الجوهر واحد، هو تعطيل الحركة الإنسانية والوقوف عند الماضي كنهاية للتاريخ. فإذا كان فوكوياما قد أنهى التاريخ بالتاريخ الحدائي الغربي، فإن الحركة السلفية السنية بتلوييناتها الإخوانية والوهابية والسلفية الجهادية والحركات الإسلامية السياسية قد أوقفت التاريخ منذ زمان، وبدأت تنظر للرجوع إليه في تعنت واضح مع سنن التاريخ في حملها لعناوين، مثل: "لا يصلح حال الأمة إلا بما صلح به الأوائل".

إنّ ما يطرحه الفكر السلفي السني أمام الدارس كبنيات وقواعد تأسيسية يعد أكبر العوائق المانعة، من اقتحام المعرفة الإنسانية إلى حقل النصّ الديني، وهي رؤية متعالية على الواقع ترى أن الله قد جمع في الدين علوم الأولين والآخرين، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؛ ففيه السياسة والاقتصاد والاجتماع... وبذلك فلا حاجة لعلوم إنسانية نشأت في أحضان الغرب لمقاربة النصّ الديني المقدس. بيد أن هذه النظرة بدأت تفقد مصداقيتها من خلال تكذيب الواقع التاريخي لها. والعلوم الإنسانية بمناهجها وآلياتها مستقلة عن الدين، وهي وليدة الفكر الإنساني يطوّر ها وينميها حتى تستجيب لمطالبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حسب الظروف والوقائع.

إنّ حديثنا عن العقل السلفي السني يندرج في سياق نقدي لما يحمله هذا الفكر من تناقضات داخلية، وثورات على مستوى التطبيق، تجعل منه فكراً قومياً أو عنصرياً يحمل في طياته بذور الفناء. فما دام الإنسان متجاوزاً داخل هذا النسق فلن يفرز إلا الانغلاق كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وهذه الدراسة التي نحن بصددتها تنبني على قاعدة نقدية ليس هدفها الانتصار إلى الذات أو مواقف معلنة مسبقاً. وإنّما تركز على ما تعتبره أخطاء منهجية وعلمية في بنية العلوم المؤسسة لما سميناه بالفكر السلفي السني، على اعتبار أنّ السلفية هي مرحلة وتصور ناشئ عن إمكانية عودة التاريخ والاستلهام منه، وهي تصوّر عام يشمل جميع الأنساق الفكرية الدينية والفلسفية والثقافية، لهذا تمّ تخصيصها بالمذهب السني بوصفه ممثلاً شرعياً لغالبية المسلمين في عالمنا المعاصر. هذه الدراسة النقدية لا تعني بحال ابتعادها عن مسألة التحيز في العلم، فهذا أمر كبير لا يستطيع الباحث مهما تحرّى الموضوعية والعلمية أن يستوفيه حقه، أو يتجاوز بعض عراقيله. ولكن أملنا كبير في أن نسلك طريقاً نتوخى من خلاله وضع الأصابع على الداء، وإن كان هذا الطريق وعراً وصعباً نظراً للسياجات المعرفية والقداسة المسبقة التي تحيط بهذه البنيات المؤسسة.

إنّ طريق الإصلاح طريق لا يمكن أن يحقق غاياته وأهدافه من خلال شعارات برّاقة، أو دفاع غير مبرّر عن هذا الاتجاه أو ذاك. ولكن الإصلاح منهج متكامل يراعي خصوصيات الزمان والمكان، وينفتح على الدرس الإنساني بعلمه ومعارفه المتطورة، ويكسر كلّ قداسة قد يلبسها هذا الاتجاه أو ذاك بغية الحفاظ على قداسته، أو مآربه الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وهو إصلاح يستهدف أيضاً دراسة هذه العلوم من خلال بنيتها وبمنطقها نفسه. فإذا كانت هذه العلوم قد أسست

على ما هو علمي فستكون بنيتها الداخلية ثابتة ثبوت الراسيات، لا يحركها نقد، ولا يؤثر فيها ربح أية مقارنة تستهدف المساس من قداستها. وإذا كانت هذه البنيات قد أسستها المؤسسة الدينية بقواعد وأصول وضوابط مبنية أساسا على القمع الفكري، واحتقار العقل الإنساني والنيل منه عن طريق شرعية مزورة، فستذهب هذه المقاربة الدينية جفاء بمجرد رمي حجر في مائها الراكد حيناً من الدهر.

وستكون مقاربتنا للموضوع من خلال المباحث التالية:

1- الفكر السلفي السني والانتكاسة للوراء

أ- السلفية السنية والعود الأبدي:

تتغذى فكرة السلفية السنية من فكرة العود الأبدي، حين تستحضر الماضي وإمكانية استنساخه في الحاضر، فحسب نيتشه إنّ الأحداث والوقائع يمكن إعادتها كلّها بعد موتها وفنائها في الزمن اللامتناهي. إنّها الفكرة نفسها التي تحرّك عشاق الماضي، والسلفية مرحلة من مراحل هذا الماضي الذي يمجّدونه بشكل انتقائي، وكأنّ عالمهم ملائكيّ إلى الحدّ الذي يصعب معه إيجاد الثغرات. إنّ اللجوء إلى الماضي للاحتماء به من قهر الحاضر وضبابية المستقبل، تعبّر عن عجز واضح في الرؤية، كثيرا ما نقرأه بوضوح في مقولات وشعارات من قبيل: "لا يصلح حال الأمة إلا بما صلح به الأوائل"، وهي مقولة قديمة معاصرة تأخذ أشكالا مختلفة حسب الزمان والمكان. كما أنّها فكرة تتغذى أساسا من نظرية العود الأبدي كما قلنا سابقا؛ أي إمكانية استرجاع الماضي بأحداثه وشخصياته، كلّما عجز الفكر عن أن يستجيب لمطالب الإنسان، وأن يصنع من نفسه بديلا حضاريا ينعم فيه الإنسان بالكرامة المفقودة، والإنسانية الضائعة في عالم المادة الذي تغيب فيه نفخة الروح، وكلّ ما من شأنه أن يعيد إلى الإنسان هويته المفقودة.

إنّ انحصار العقل السلفي في الزمان والمكان كان له الأثر الكبير على تجميد القوة الإدراكية فيه، وتحويلها إلى مجرد استرداد لمقولات عبّرت عن زمانها، وأسهمت في بلورة مشروع مجتمعيها. فمن الخطأ أن نفكر بعقول غيرنا، وما ذلك الغير إلّا نحن في أحد تجلياته الأساسية. ولربما منبع الخطأ في المنطلقات السلفية هو اعتبارها أن السلفية لا تعبّر عن مرحلة زمنية لها ما لها وعليها ما عليها، بل هي تتجاوز كل هذا لتصبح قرينة بالدين نفسه، أو ما عبّر عنه نصر حامد أبو زيد بإشكالية التراث والدين، حين أصبحت هذه الثنائية تعني شيئا واحدا يصعب افتراقه عن الآخر، والمسّ بأحدهما هو مسّ بالآخر بالضرورات المنطقية السلفية¹. إنّ نظرية

¹ أبو زيد، نصر حامد، النص السلطة الحقيقة، المركز الثقافي العرب، بيروت، الطبعة الأولى، 1995، ص 13

الوصل هذه نظرية متهاقنة والجمع بين السلفية والإسلام هو جمع بين النقيضين، لأنّ الإسلام أكبر من أن نحصره في فترة زمنية لها ظروف نشأتها، وبأشخاص معيّنين لازموا من بعيد أو من قريب هذه الفترة الزمنية. ولكن الإسلام مفهوم قد تمّ بناؤه على قاعدة ثقافية اخترلته في الشقّ الطقوسي فقط، فكان الإنتاج هزياً بأنّ تحوّل الإنسان من الفرد القادر على العطاء والنماء، إلى مجرد شكل فارغ من المحتوى الإنساني الرحب بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى. ولا يمكن بحال الاطمئنان إلى هذه القاعدة الثقافية للفظ، لما تحمله من مآلات نرى تجلياتها في عالمنا المعاصر. وعليه فلا بد من إبداء تصوّرنا حول هذا اللفظ، انطلاقاً أيضاً مما تحمله حروفه "سلم". فالمسلم ليس فئة جغرافية أو ثقافية أو عرقية، وليس انتماء إلى جذور معينة. بقدر ما هو انتماء لأصول هذا اللفظ؛ أي انتماء للقاعدة السلمية فكراً وعملاً. فالمسلم من كان السلم منهجه، بالأبداً يكون متسلطاً على الآخر في فكره أو جسده، ولم يتعامل مع الناس إلّا في حدود التواصل الإيجابي البعيد عن الحساسيات الدينية والسياسية، والإسلام بذلك أسلوب ومنهج السلم، وليس سفكاً للدماء أو إفساداً في الأرض وتسلطاً على أصحابها: "أفنجعل المسلمين كالمجرمين"². فلا تساوي بين من كان السلم منهجه، وبين من أجرم في حق نفسه بأن نصّب منها حكماً على الناس، وفي حقّ غيره بأن لم يؤمّنهم في دينهم وفي أجسادهم.

ودعوى مثل هذه تسوي بين السلفية والإسلام، أو بتعبير آخر السلفية هي الإسلام، هي محاولة لإضفاء الشرعية على مجموعة اجتهادات، ووجهات نظر أعمل فيها السلف فكرهم. كما أنها ارتفاع بمقام الإنسان إلى مقام التسلط الذي يصبح فيه إلهاً يمارس ألوهيته على من شاء الانصياع له: "واستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين"³. وهذا الشعار المذهبي المقيت، كانت له آثاره العميقة في تهيج روح العصبية، ومحدودية النظرة المرتبطة بالتاريخ القديم دون النظر إلى آفاق الإنسانية اليوم. فدين الله في الأرض لا يعترف بالأسماء ولا بالنعرات الجنسية أو العنصرية، وأياً وجدت هذه المعطيات، فهو التدخل البشري الممتد إلى قيم الدين تحريفاً أو تضليلاً.

ب- خيرية القرون الثلاثة:

جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"⁴.

وقع الخلاف في فهم هذا الحديث، حتى من قبيل من هم منتمون لصلب التوجّه السلفي السنّي، هذا الخلاف تمحور حول الخيرية المذكورة في الحديث هل هي لمجموع الأمة التي عاشت في تلك القرون، أم تنطبق هذه

² - سورة القلم الآية 35

³ - سورة الزخرف الآية 54

⁴ - رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي (الفتح 3650/7)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (النووي 2533/16)

الخيرية وتسري على كل فرد على حدة عاش آنذاك؟ فذهب الجمهور إلى أن الخيرية متحققة في مجموع أفراد الأمة، وذهبت طائفة إلى أن هذه الخيرية هي لمجموع الأمة، ولا تسري على الأفراد.⁵

والكثير ممن تبناوا التوجه السلفي كانوا متأثرين بمجموعة من التأصيلات والقواعد، ولعل أكبر موجّه لهذا الفكر أو العقل هو النصّ⁶. ففي التوجّه السلفي لا مكان للعقل خارج النص أو الرواية بشكل عام. وبذلك اغتيل العقل وأبيدت كل المذاهب المرتبطة به، إلى الحد الذي يصفى كل من تجرأ على فهم النص خارج البنية السنية، كما فعلوا بالجعد بن درهم فيما يرويه ابن كثير أن: "خالد بن عبد الله القسري قتل الجعد يوم عيد الأضحى بالكوفة، وذلك أن خالدًا خطب الناس فقال في خطبته تلك: أيها الناس! ضحوا يقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا. ثم نزل فذبحه في أصل المنبر".⁷

إنّ الكثيرين رأوا في الحديث السابق حجتهم في التزام أقوال السلف وعدم تجاوزها، بل بنوا عليه في تأصيلاتهم وفهمهم وسلوكهم. وقد كان الدافع لتبني هذه النظرة مبنياً أساساً على أنّ الصحابة مثلوا الحلقة الأولى المتصلة بينبوع النبوة، وتعاليم الرسالة، وكان لهم دور كبير في نصر الإسلام. كما كان التابعون يمثلون الحلقة الثانية من ذلك التاريخ المشرق، فقد عاصروا الصحابة، ونهلوا من علمهم، وتحلّوا بأخلاقهم، وكانوا خير خلف لخير سلف. وكانت الحلقة الثالثة من هذه السلسلة هي حلقة أتباع التابعين التي كانت نقطة تحوّل في التاريخ الإسلامي، وإبداها بانتهاء مرحلة الصفاء الفكري، والفطرة النقية، وبدء مرحلة الابتعاد عن المنهج الإسلامي في تصورات، ومواقفه، وقيمه الربانية.⁸

إنّ كل ما ذكره الآن حول هذه الحلقات الثلاث، لا يجعل أقوالهم لا تناقش، ولا مواقفهم واجتهاداتهم صالحة لكل زمان ومكان كما يريد أن يقنعنا أصحاب النظرية السلفية في الدين، ولا أن نقع في نسقهم دون أي انفتاح على الدرس الإنساني بعلمه ومعارفه المتطورة. وذلك للأسباب التالية:

- إنّ مشكلة أي فكر ديني هو في منطلقاته الفكرية بمعنى أصوله وقواعده. فإذا كان يعترف بأن هذا الإنتاج الضخم من المعرفة هو إنتاج بشري فيه الصواب وفيه الخطأ، لن تكون هناك أية إشكالية في ملامسة النقاط التي قد تكون مثار جدل بين الناس عموماً. ولكن الخطير حين تتحوّل هذه البنيات المؤسسة إلى ضوابط منهجية ومعرفية، لا يمكن أن يتجاوزها الإنسان بدرجة من الدرجات، وأية محاولة للمسّ من قدسيّتها أو

⁵- العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار المنار، 1999/1419، 4/7

⁶- أبو زيد، نصر حامد، المرجع السابق، ص 19

⁷- ابن كثير، إسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، دار الحديث، ط5، 1998/1418، ج 9، ترجمة الجعد بن درهم

⁸- البوطي، محمد سعيد رمضان، السلفية مرحلة زمنية مباركة، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2000/1421، ص 10

القرب من الشرعية المحاطة بها، يكون مآله، إما القمع الفكري عن طريق التعبئة السياسية ضد هذا الاتجاه أو ذلك، أو عن طريق القمع الجسدي إذا توفرت الظروف لذلك.

- إن القرآن الكريم هو كتاب عالمي لم ينزل إلى طائفة دون طائفة، أو جنس دون جنس، وأعلن عالميته للناس جميعاً، فقال: **"وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون"**⁹. وخاطب العقول بمختلف مستوياتها بعدم التعلق بالآباء والأسلاف، ووجهها لعملية التدبر والتفكير في كل ما من شأنه أن يرقى بالحياة الإنسانية: **"أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين"**¹⁰. **"كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب"**¹¹.

فالتدبر هو دعوة لإطلاق العنان للتفكير، ليزداد الإنسان اقتناعاً بما يؤمن به أو يتبناه، ويكون سبيلاً لأخذ العبرة؛ فالقرآن يقول: **"فاعتبروا يا أولي الأبصار"**¹².

- مستلزمات واقعنا هي حق من حقوقنا التي يجب أن نفكر فيها، وفي سبل الارتقاء بها إلى المكانة المرموقة، التي يسعى كل إنسان في هذه الحياة أن يصل إليها. وبالتالي لم يعد أي مسوغ لأن نستجلب حل قضايانا، من أناس كانت نظرتهم مبنية على واقعهم التاريخي والجغرافي. وكانت سقوفهم المعرفية لا تستوعب طبيعة الحياة المعاصرة بكل تجلياتها.

- فهم الصحابة للدين عموماً فهم نسبي بشري متأثر بالزمان والمكان والثقافة، وهو مجرد إفرازات تعاملهم معه كما هو حال جميع الناس في الأرض، وفيه احتمال الخطأ والصواب. لذا لا يمكن أن يصبح الفهم البشري سجناً تقبع فيه أفكارنا، مهما كانت نظرتنا إلى هذا الاتجاه أو ذلك. فالعبرة بما يمكنه أن يحقق إنسانيتنا الضائعة، لا بالالتزام بحرفية أو سلوكيات معينة.

- خيرية الأمم تكون بمقدار ما يمكن أن تحققه للإنسان، وبقدر الاستجابة لمطالبه الفكرية والاجتماعية. وليست خيريتها مرتبطة بسبقها في الزمان أو المكان: **"كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"**¹³. فكل من التزم بشروط الخيرية سواء عاش في عصر السلف، أو في عصر الخلف، سيكون خيراً. وبالتالي، فالخيرية المذكورة في الحديث المتأثر بالنظرية المشار إليها سابقاً، لن تكون دليلاً على انحباس في حرفية الكلمات التي نطق بها السلف، ولن تكون داعياً من دواعي الخمول والجمود الفكري والديني.

⁹ - سورة سبأ الآية 28

¹⁰ - سورة المؤمنون الآية 68

¹¹ - سورة محمد الآية 24

¹² - سورة الحشر الآية 2

¹³ - سورة آل عمران الآية 110

2- القرآن الكريم وخطر التسلف (الآبائية):

إنّ موضوع التسلف بشكل عام يرد في القرآن الكريم في سياقات مختلفة مقرونا بالاحتجاج بفكرة الآباء، وهو ما يمكن أن يصطلح عليه بـ "الآبائية"، وهي فكرة تنهل من الموضوع قيد الدرس، إذ الاحتجاج بفكر الآباء لا يخرج عن سياق الفكر السلفي. هذا الموضوع الذي يلامسه القرآن الكريم ويكشف عن أطواره، ويبرز معالمه، وتجلياته في حياة الإنسانية عامة. ولعل دراسة هذا الموضوع في الواقع الحالي تكمن في أنّه يلامس جانبا مهماً من الجوانب الإنسانية، ويكمن في كون الكائن الإنساني مهما كان أصله أو جنسه أو دينه، هو ابن بيئته يتأثر بها سلباً أو إيجاباً. هذه البيئة الثقافية والجغرافية والتاريخية تظلّ عاملاً مهماً، يلتصق به الإنسان، ويدافع عنه، ويتأثر به على جميع المستويات. والفكر الآبائي بتعبير القرآن أو السلفي كما هو وارد في أدبيات الفكر الإسلامي المعاصر، واحد من الجوانب الرئيسية التي تسهم بشكل كبير في ركود الإنسان بين الخرافة والتقليد، وتمنع تواصله بشكل إيجابي مع محيطه الإنساني والكوني.

يصطدم القارئ والباحث أمام الكمّ الهائل من السياقات القرآنية التي تلتفت إلى الانجذاب إلى الوراثة، وعبر عنها بما يثير مجموعة من التساؤلات حول طبيعة هذا الفكر وخطورته، إذ الإنسان لا يستطيع أن يمشي سويًا يستقبل المخبوء، وحركته منتكسة بشكل عكسي تستجلب الحلول من الموتى والرجال والماضي، وتقع في سجن التقليد، وتفكر ضمن منظومة صنعت في التاريخ لتستجيب لمطالب زمانها. ربما يتوهم بعض الناس من خلال القراءة التجزئية التي طبعت التفسير المأثور لعهود طويلة أنّ موضوع البحث في فكرة "الآبائية" كما تناولها القرآن الكريم بعيداً كل البعد عن موضوع التسلف، ظناً منهم أن هذا الموضوع قد ولى زمنه، واندثرت آثاره، ولم يعد إلاّ فترة ومرحلة ارتبطت بتاريخ معين كما حددتها أسباب النزول. وليس مفهوماً يمكن أن يتجلى في أبعاده في أي زمان أو مكان ضمن دائرة السنن التي لا تتبدّل أو تتغيّر.

فمن الخطأ الجسيم أن نتصور أنّ "الآبائية" هي فترة زمنية معينة مضت إلى غير رجوع، بل هي جوهر معين يأخذ أبعاداً ووجوهاً متعددة قد تختلف في الصورة والشكل، ولا تختلف في المعنى والحقيقة. غير أن هناك فئة من الناس ما زالت لم تدرك المعنى الحقيقي للفكر الآبائي الذي عناه القرآن الكريم، فحصر مظاهر "الآبائية" في حياة سقيمة أدت إلى اضطراب الناس في العبادات والشعائر والسلوك، فعبدوا الأصنام والجنّ والملائكة، وعاشوا في جحيم الثأر والانتقام والتعصّب القبلي، ومن ثمّة يحصرونها في هذه الصورة المحدودة في الزمان والمكان، ويحسبون أنها فترة ومرحلة لم تعد إلا في ذاكرة الاسترجاع التاريخي.

ومحاولة منّا الخروج بموقف صريح للقرآن من هذا الفكر الخطير، أو استنباط نظرية "الآبائية" من القرآن الكريم بمنطق قراءة موضوعية تعتمد قراءة كلية وشمولية، نسبر أغوار هذا الأخير لاستكشاف هذا التصور السقيم والفكر الخطير الذي يرفض اتباع ما أنزل الله، ويقتفي آثار الآباء، ويقف عند ما اختطه نهج

الأسلاف، في غياب منهج علمي أو بينات من الهدى. وانطلاقاً من هذه المقدمات؛ فالآبائية ليست محصورة في مظاهر الشرك الساذج، ولا في فترة من الزمن ولّى عليها الدهر ومضى، وإنما هي جراثيمة تربو وتنمو في أي وقت وزمان، وتظهر في أي مستوى من مستويات الحياة الإنسانية في الفكر والقيم، والسياسة والاجتماع، إذا كانت كل هذه المستويات تستجلب الحلول من السلف والآباء. والقارئ للقرآن الكريم، سيكتشف أنّ طبيعة هذا الفكر الذي نحن بصدد معالجته، طبيعة قاتلة من شأنها أن تقتل في النفس الإنسانية كل أمل بالتواصل الحضاري الذي ينتج عن أعمال العقل والاستفادة من مواهب النظر في العملية التفكيرية اتجاه الكون والحياة والطبيعة. واستبدال هذه المعطيات الإبداعية والمعرفية بأراء الرجال، ومذاهب الآباء، ليصبح الإنسان في ظل هذا النسق الفكري إنساناً عاجزاً لا خير فيه، كلٌّ على مولاه، رهين التبعية والذل والمسكنة.

ولنستمع إلى القرآن، وهو يحدثنا عن موقف الآبائية من العقل والتفكير، فقال تعالى: "وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير(6) إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور(7) تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير(8) قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير(9) وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير(10) فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير(11)".¹⁴

فاعتراف هؤلاء بعدم السمع والتعقل، لي طرح أماننا موقفهم المتصلّب تجاه هذه الملكة التي أنعم الله بها عليهم، وجعل أعمالها واستخدامها على الوجه الأحسن حدّاً فاصلاً بين عالم الإنسان المكرم الذي خلقه الله لعمارة الأرض، والاستخلاف فيها، وبين عالم الحيوان الذي يفعل ما خلق له. وتزداد هذه الحقيقة وضوحاً، والقرآن الكريم يكشف لنا موقفاً جديداً من ملكة العقل، في قوله تعالى: "ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون".¹⁵ وقال تعالى: "أم يحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً"¹⁶، "ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون".¹⁷

وتستمرّ مسيرة القرآن النقدية للفكر السلفي، فيقول تعالى: "وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا هم يهتدون ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا

¹⁴ - سورة الملك، الآية 6-11

¹⁵ - سورة الأعراف الآية 179

¹⁶ - سورة الفرقان الآية 44

¹⁷ - سورة المائدة الآية 103

يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم فهم لا يعقلون"¹⁸. ليتأكد بوضوح خطر هذا الفكر في قتل مواهب النظر، والدسّ على المؤهلات البشرية الممنوحة من لدن الله تعالى: "أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها" وذلك بإيقاظ العقول وتوجيه الأفهام إلى التأمل في آيات الله في الكون: "أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم"¹⁹. "أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير"²⁰, "أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن"²¹.

كما يرشد القرآن إلى التأمل في آيات الله في المجتمع والتاريخ لأخذ العبرة، وسلوك طريق سويّ يجنب الإنسان مغبة السنن التي تحكم هذه المجتمعات: "أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم"²² "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين"²³, "ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون"²⁴. وقد دعا القرآن أيضا إلى التأمل في النفس الإنسانية كيف سواها، وألهمها فجورها وتقواها، وذلك ليصل الإنسان إلى الإيمان بالله خالقا عليمًا، لا يعرف العبث "أولم يتفكروا في أنفسهم"²⁵, "وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسهم"²⁶, "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة"²⁷.

وهكذا نرى أنّ القرآن الكريم قد سعى لترسيخ أعمال الفكر والنظر في السماوات والأرض، وتتبع حركة التاريخ وما يتحكم فيها. كما نجده قد عمل على تطهير النفوس من أدران الجمود وتعطيل ملكة العقل، فاستحق كل من ينشد هذا الطريق الرجس بهذا العمل: "ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون"²⁸.

أ- الآبائية دعوة إلى التقليد:

يأتي هذا المظهر تبعا لما سبقه وتتمّة له؛ فالتقليد أحد الجوانب الطبيعية، ونتيجة حتمية لتعطيل ملكة الفكر والتعقل. والقرآن الكريم لا زال يكشف جوانب خطيرة من الفكر الآبائي المهدد للكيان الإنساني في كل زمان

¹⁸- سورة البقرة الآية 169- 170- 171

¹⁹- سورة الشعراء الآية 7

²⁰- سورة الأحقاف الآية 33

²¹- سورة الملك الآية 19

²²- سورة الروم الآية 9

²³- سورة النمل الآية 69

²⁴- سورة يس الآية 31

²⁵- سورة الروم الآية 8

²⁶- سورة الداريات الآية 20- 21

²⁷- سورة الروم الآية 21

²⁸- سورة يونس الآية 100

ومكان، فيقول تعالى: "بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون".²⁹

فالآية الكريمة تنطق بلسان صدق عن هذا الموقف المعادي للعقل، والداعي إلى التقليد الأعمى، والتبعية العشواء. كما تضع يديك على سنّة إلهية، وقانون جبلت عليه النفس الإنسانية، لا يعرف التغيير ولا التبديل. تلك السنّة في تقليد الآباء والأسلاف، وذلك القانون في تمجيد الماضي والبكاء على أطلاله. ولم تكن دعوة الأنبياء بمعزل عن هذا السياق السلفي، فلقد جاءت بالأساس لتكون صيحة نذير من خطر التقليد، ونداء إلى الإنسانية للتحرّر من أصفاد الجهل وأغلال التحجّر العقلي، فها هو أبو الأنبياء إبراهيم يدعو قومه لنبذ الأصنام التي يعكفون عليها فيجيبه قومه بأن التقليد هو الدافع لعبادتها: "ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين"³⁰ وقال: "واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون".³¹

وهذا نبي الله هود يدعو قومه إلى عبادة إله واحد، لا يشخص بصنم، وينبذ عبادتهم للآلهة المتعددة، فيقولون: "أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فاتنظروا إني معكم من المنتظرين".³²

وإلى ثمود أخاهم صالحا يدعوهم إلى التحرر من التبعية العمياء للآباء، والسير على آثارهم، وبمد بصرهم إلى وظيفتهم التي خلقوا لها، وهي عمارة الأرض والاستخلاف فيها. فأجابوه: "قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب. قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير".³³

وهذا موسى وهارون يحذران قومهما من مغبة التقليد، والجمود على دين فرعون وملته، ويأتيا قومهما بالبينات: "فما كان جواب قومهما إلا أن قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمومنين".³⁴

²⁹- سورة الزخرف الآية 22- 23

³⁰- سورة الأنبياء الآية 51- 54

³¹- سورة الشعراء الآية 69- 73

³²- سورة الأعراف الآية 70- 71

³³- سورة هود الآية 62- 63

³⁴- سورة يونس الآية 78

وهكذا فدعوة الأنبياء جاءت لتبدد تلك الشبهات التي كبّلت العقول والأفهام، وسجننتها في سجن التقليد، والتحرّج العقلي، والكبت الفكري. والواقع المعاصر ليس ببعيد عما تحدّثت عنه الآيات. فبالرغم من الثورة المعلوماتية الهائلة، والتواصل التكنولوجي المنقطع النظير، ما زال الكثير من الناس يحنّون إلى التقليد، وإلى التعلّي بالماضي، وأمجاد. هذا الحنين الذي يمنع من التواصل مع معطيات الواقع الجديد واقع العولمة الجامحة، والذي لا يمكن أن يصمد أمام تياره إلا من شمر على ساعد الجد، وانخرط بشكل إيجابي في بناء المنظومة الإنسانية بعيدا عن براثن التقليد، وذللّ التبعية. والقرآن الكريم يقدّم لنا الشّرك، باعتباره أنموذجا يكشف خطورة التقليد، واقتفاء آثار الآباء بلا برهان أو علم صحيح. فإيراده لهذه القصص القرآنية هدفه تنبيه الذهن إلى أخذ العبرة وقياس الحال على الحال. وعليه فمن السّاذجة أن نرى بأنّ القرآن قد نهى على تقليد الآباء في عبادتهم الأوثان محسوسة ساذجة وكفى، بل تجاوز ذلك إلى أن أنهى على التقليد في شموليته، واقتلع أصوله ونسف ما كان له من دعائم وأركان، وهاب بالعقل أن ينهض من سباته العميق، ليتفّيا ضلال الحرية التي تجلّي معالم الحقائق وتجعل قيادة التوجيه، قيادة هداية ورشاد.

ب- وقفة مع الدكتور البوطي من خلال كتاب: "اللامذهبية أخطر بدعة تهدّد الشريعة الإسلامية":

حتّى تكتمل الصورة، ونبلغ المراد، أحببنا أن ننهي هذا المبحث بمناقشة مع الدكتور البوطي، قد ارتأينا أن لها صلة وثيقة بموضوعنا، كما أنّها تعدّ بشكل أو بآخر دعوة إلى التقليد الذي ما فتئنا ندندن حوله خلال هذا المبحث. وهما الوحيد خلال هذه الوقفة مع الدكتور هو بناء تحرير الإنسان من أغلال التقليد التي ما زال عالمنا الإسلامي يجرّ أذيالها، ويتجرّع مرارتها، كما نهتمّ من خلال هذه الوقفة بجعل البرهان هو ركيزة لتأسيس القناعات، وما لا يقوم على الدليل والبرهان فليس له موطئ إلا في عقول من سلّم نفسه للغير يفكر ويعقل بواسطته.

يقول الدكتور البوطي: "وقد علم كل عاقل في الدنيا أن الناس جميعا لو عرفوا كيفية اتباع المعصوم والوسيلة إلى فهم المراد من كلامه لما انقسموا إلى قسمين، مقلّدين ومجتهدين. ولما قال الله للصنف الأول: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" فقد أمرهم باتباع أهل الذكر مع أنهم غير معصومين، ولم يأمرهم بالرجوع إلى ألفاظ الكتاب والسنة مع أنهما معصومان".³⁵

*- تقسيمه الناس إلى مجتهدين ومقلّدين:

لقد قسم البوطي من خلال النصّ السابق الناس إلى قسمين: مجتهدين ومقلّدين، وخالف القسمة الثلاثية التي تبنتها مجموعة من العلماء، فلم يعتبر قسم "المتبعين"، واعتبر هذا القسم الثالث يلحق بالقسمين اللذين أثبتهما

³⁵ - البوطي، محمد سعيد رمضان، اللامذهبية أخطر بدعة تهدد العالم الإسلامي، مكتبة الفارابي، ط 2، ص 23

سلفاً. والمجتهد بالنسبة للبوطي هو الذي خبر الأدلة وطرائق الاستنباط منها. والمقلد غير الخبير أو القادر على استنباط الأحكام منها. أما المتبع، فهو ذاك الذي يستطيع أن يميز الأقوال عن بعضها بقوة الدليل، وضعفه، فهذا هو عين الاجتهاد.³⁶

إنّ التقسيم الذي قال به البوطي فيه نوع من التجاوز؛ فالتقليد ليس هو العجز عن الاستنباط من الأدلة وكفى، وإنما هو الرجوع إلى قول لا حجة له، والدفاع عنه والتعصب له. أما الاتباع، فهو ما ثبت على الحجة، وقام عليه الدليل، وهو في دين الله مقبول، والعمل بمقتضاه مشروع، قال تعالى: "فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه".³⁷

***- قوله بأن الله قال للمقلدين: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون":**

إنّ الآية التي استدلت بها البوطي خارجة عن محل النزاع، إذا حكمنا السياق الواردة فيه، لأنها ردّ على الذين أنكروا أن يكون الرسول بشراً، قال تعالى: "وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون".³⁸ فالآية كما ترى تخبر بأن الله يصطفي لرسالاته رسلاً من الناس، يبلغون وحيه. وتأمّر الناس أن يسألوا أهل الذكر -وهم كلّ من يتذكّر هذه الحقيقة- وما الكتب السماوية إلا جزء من هذا التذكير، قال تعالى: "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى".³⁹ فالآية ترد على من ينكر أن الله لا يبعث بشراً رسولاً، كما قالوا عن نوح: "فقال الملائكة من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين"،⁴⁰ وقال الله في شأن عاد وثمود: "فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون".⁴¹

والآية التي استدلت بها البوطي تدعو إلى سؤال أهل الذكر، الذي هو التوراة والإنجيل قال تعالى: "ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرنا للمتقين".⁴² والإنجيل بهذا المعنى أيضاً ذكر كالتوراة والقرآن، لأنه مصدق لما بين يديه من التوراة، قال تعالى في حق عيسى: "وأتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة".⁴³ إذن نخلص أنّ الآية لا تسعف البوطي فيما ذهب إليه من أنّ المقلد أمره الله باتباع أهل

³⁶ - المرجع السابق، ص ص 102 - 103

³⁷ - سورة الزمر الآية 17 - 18

³⁸ - سورة الأنبياء الآية 7

³⁹ - سورة يوسف الآية 109

⁴⁰ - سورة المؤمنون الآية 24

⁴¹ - سورة فصلت الآية 13 - 14

⁴² - سورة الأنبياء الآية 48

⁴³ - سورة المائدة الآية 46 / مجموعة من المفسرين تبينوا هذا الرأي: الطبري 586/7، السيوطي في الدر المنثور 132/5، الشوكاني في الرسائل السلفية،

الذكر الذين هم العلماء حسب تفسيره، لأنه على فرض أن أهل الذكر هم العلماء؛ فالآية حجة على المقلدة، وليست حجة لهم، لأن الأمر بالسؤال ينافي التقليد الذي هو قبول قول الغير دون المطالبة بالدليل والحجة. والقرآن الكريم يطالب كل من فيه ذرة عقل بالسؤال بما في ذلك رسوله محمد: **"فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسال الذين يقرؤون الكتاب من قبلك"**⁴⁴، وقال: **"واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون"**⁴⁵.

ولا بدّ أن الشك ضرورة إنسانية وخطوة مهمة من أجل التأسيس للقناعات الفكرية الراسخة بعيدا عن منطق الكبت الفكري والقمع النفسي، الذي غالبا لا يؤسس إلا وهماً داخل النفس الإنسانية وقناعاتها المختلفة تجعلها في حيرة من أمرها. والشك ليس محصوراً فقط في جانب دون الجوانب، بل يتجاوز كل هذا وذلك إلى كل القناعات التي يحملها الإنسان بما في ذلك الدينية منها أو الثقافية بشكل عام، وهذا ما يضمن سير الإنسان على بصيرة من أمره دون الركون إلى ما وجد عليه الآباء والسادة والكبراء. ولعلّ القرآن نفسه تحدّث عن هذا المعطى من خلال أنموذج إبراهيم: **"رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي"**⁴⁶. فتجربة إبراهيم ما كانت لتتأسس بعيدا عن جدلية الشك وجدلية الاطمئنان القلبي وتقلبات النفس الإنسانية، فلا الركون إلى منطق التسليم والمسلمات والثوابت هي من ستحدّ من سؤال النفس والقلب معاً، بل وحدها التجربة النابعة من عمق السؤال المنبعث من الشك هي من يمكنها أن ترسم في الأفق معالم الاطمئنان. وحتى ما أنزل على الرسول محمد هو قابل وداخل بالضرورة في هذه الجدلية وغير بعيد عنها كما رأينا سابقاً، بحكم هذه الطبيعة المستحكمة في البناء البشري، حيث يقول القرآن: **"وإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك"**⁴⁷؛ فالشك يتجاوز الإنسان العادي إلى حامل الرسالة نفسه، أو أي فرد منا قد تحدّث نفسه شكاً في ما أنزل إليه بحكم هذه الطبيعة النفسية التي تحكمنا نتيجة مجموعة من العوامل، ولن يكون من المنطقي إخفاء هذا الشك أو كبته هو الحل في مقاربة، مثل هذه التساؤلات التي يطرحها العقل الإنساني في أي زمان أو مكان من قبيل الوجود والنشأة والمصير والمآل، بل هو السؤال وحده هو السبيل إلى الغوص في مثل هذه القضايا، ذلك السؤال المنبعث من البحث وعدم التوقف عند ما خطه الآباء والأسلاف تحت مسميات عديدة.

وهكذا، فإنّ القرآن الكريم قد أمر الرسول محمد نفسه بالسؤال، فهل هذا معناه أنّ محمداً كان مقلداً؟! لا شك أنّ البلاغات القرآنية لا تدعو إلى تقليد العلماء، وإنّما إلى سؤالهم، وقد عرفنا الفرق بين التقليد والسؤال سابقاً. وقول البوطي بتقليد العلماء، والالتزام بمذهب معين بالنسبة للعامي هو في الحقيقة ارتفاع بالعلماء إلى

⁴⁴- سورة يونس الآية 94

⁴⁵- سورة الزخرف الآية 45

⁴⁶- سورة البقرة الآية 260

⁴⁷- سورة يونس الآية 94

عالم العصمة التي يرفضها العقل السليم. وهذا المنزلق الخطير الذي أوقع غيرنا في غياهب التقليد والتسلف، حين ارتفعوا بعلمائهم ورجالهم إلى مقام الربوبية: "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله"⁴⁸.

***- قوله: "لم يأمرهم بالرجوع إلى الكتاب والسنة مع أنهما معصومان":**

إن قول البوطي "لم يأمرهم بالرجوع إلى الكتاب" هو خطأ ظاهر، لأن إرشاد الله تعالى لهم إلى سؤال أهل الذكر، ليس في الحقيقة إلا رجوعا بهم إلى معرفة مراد الله تعالى في القرآن، وليس سؤالهم عن آرائهم الخاصة، والمقلد كما بيّننا لا يكون مقلدا إلا إذا سلك أي سلوك من غير أن يسأل عن الدليل، أما إذا سأل فليس بمقلد. ثم كيف لم يأمرهم بالرجوع إلى الكتاب، والله يقول: "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"⁴⁹، وقال: "كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولوا الألباب"⁵⁰، فهل هذا الأمر بالتدبر ليس إلا رجوعا بالناس إلى القرآن ليغرفوا من معينه، وينهلوا من صفائه.

أما احتجابه بأن الذكر في الآية يتضمّن السنّة أيضا فهو مجانب للصواب. فإقحام مفهوم السنّة حسب الاصطلاحات الثقافية في هذه الآية، هو تجاوز لمنطقية العلم الذي يفترض أن يدرس على الأقل كلمة الذكر كما وردت في سياقاتها القرآنية، وكما وردت داخل هذه الآية التي أرادوا من خلالها اكتساب الشرعية لعلمهم المحفوظ من الله حسب فهمهم. فالآية تأتي في سياق محاجة القرآن لمن أنكروا بشرية الرسل كما رأينا سابقا فنقول: "وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"⁵¹. فالقرآن من خلال هذه الآية يقرّر بشرية رسل الله ويطلب سؤال أهل الذكر لمن لا يعلم هذا الأمر. وأهل الذكر حسب نصوص القرآن هم من تحملوا تذكير الناس بواسطة الذكر الذي تعتبره الكتب السماوية جزءا منه. وأيّا كان فهمنا لكلمة الذكر وسواء كانت قراءتنا لها موفقة أو غير موفقة، فالذكر حسب نصوص القرآن لن يتحوّل بفعل ثقافة روائية تبحث لها عن الشرعية، إلى مفهوم السنّة الثقافي الذي لم يؤسس قرآنيا على الأقل. وهذا خلط منهجي خطير، وتوظيف مغرض لمفاهيم الثقافة المتحوّلة وإسقاطها على القرآن من أجل اكتساب القدرة على الدفاع والبقاء.

وبعد هذه الوقفة العلمية مع الدكتور البوطي، نخلص إلى أن التقليد في شموليته هو إماتة للعقول، وقضاء على عناصر الحياة فيها، والتقليد هو الذي يجعل النفوس مستعدة لقبول أقوال الناس، وتبني مذاهبهم، دون الانفتاح على الآخر بما يمثّله من هوية مستقلة لها ما لها وعليها ما عليها. فوقفنا مع الدكتور البوطي كانت دعوة لتحرير الإنسان من سيطرة التقليد، والتبعية العمياء للعلماء، والسادة والكبراء. كما هي نداء لمن امتطوا

⁴⁸- سورة التوبة الآية 51

⁴⁹- سورة محمد الآية 24

⁵⁰- سورة ص الآية 29

⁵¹- سورة الأنبياء الآية 7

فوق صهوة التقليد، واعتلوا على عرش التبعية أن ينزلوا إلى مصاف الإنسان المكرم الذي يبني فكره على أساس من البرهان القويم، والعلم السوي، ويرفض كلّ دعوة للجمود من شأنها أن تحجب عن القلوب حقائق العلم.

3- الفكر والتمركز حول الذات:

إنّ أخطر ما يمكن أن يتعرّض له الإنسان فكرياً هو اصطفاؤه الحزبي؛ أي أن يصبح رهين قناعاته البحثية في فترة من الفترات. فالحقّ ليس محدوداً بتوجّه محدد أو رؤية معينة ظهر لها الهداية في مجالات متعددة بوسائل محدودة. ولكن الحقّ أو الهداية هي حلقات مستمرة ومتواصلة كما مر معنا في المقدمة التمهيدية، لا بد أن يكون الإنسان جزءاً منها كي لا يضيع بين منطق الحزبية البغيضة التي يكون مآلها الموت بالاتباع.

وكنّت أتأمل القرآن، وهو يقول: **"وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا"**⁵² فأقرأ فيها واقعا نفسيا لا زالت آثاره سارية بسلبياتها الكثيرة على مجرى التاريخ الإنساني، فكلّ واحد يرى الهداية في رؤيته، ويقرأ الآخر وفق ذاته المحدودة زماناً ومكاناً. فكونوا هوداً أو نصارى هو انتصار لمنطق التصنيف والاصطفاف الحزبي المتمركز على ذاته، والمنغلق على أية هداية نابعة من توجه أو تصنيف آخر. لهذا فكلّ فريق يرى في الآخر عدما يجب أن يحى عن الوجود ما لم يلتزم بتصنيفه ورؤيته لأنساق معينة: **"وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء"**⁵³، والواقع يؤكد بأن الجهل هو المستحكم في العملية التصنيفية وليست المعطيات العلمية الموضوعية: **"وكذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم"**.

إنّ منطق الاتباع سواء إلى الشرق أو الغرب، إلى اليمين أو اليسار بالتعبيرات السياسية المعاصرة، ليس منطقاً حكيماً يراعي الأبعاد الموضوعية المشكّلة للواقع، ولكنه منطق يلعب فيه البعد النفسي لعبته، حينما يصبح الإنسان بوقاً لتوجّه أو صنف فكري معين دون محاولة الخروج عن نسقه من أجل رؤية أفضل تحكمها آليات علمية وليست نفسية مأزومة. وتبقى المعادلة الصعبة في أي فكر إنساني هو تمركز الإنسان على ذاته. هذا التمرکز يجعل الإنسان ينحصر داخل نسقه الفكري، ولا يجرؤ على الخروج منه إلّا في حدود معينة تمنع كل سبل التواصل بين هذه الذات والآخر بمختلف تجلياته. ولعلّ أخطر ما يمكن أن تتصوره في قضية بحجم ما نتدارسه الآن، هو تحوّل الإنسان إلى متسلط لا يرى الحقيقة إلّا في حدود ما تجود به عليه سلطته السياسية والفكرية والاجتماعية، فيتم اختزال واستيعاب كل مكونات الاختلاف فيقول قولاً بحجم: **"ما أريكم إلّا ما أرى"**.

⁵² - سورة البقرة الآية 135

⁵³ - سورة آل عمران الآية 20

وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد"⁵⁴. فالرؤية هي ما استقرت عليه الذات المتحيزة والهداية والرشاد هي في النسق الفكري المنطوي على نفسه والقابع وراء أبواب الحقيقة.

ومن هنا أقول إنّ التمرکز على الذات هو جهل بموازين السنن المستحكمة في الكون، و جهل بطبيعة الواقع الإنساني وشروطه الموضوعية. ولعل قيمة الإنسان هي في انفتاحه على الآخر بكل تجلياته سلبيًا أو إيجابيًا ومحاولة الاستفادة من كل الطاقات، وهذا هو من سيضمن لنا تواصلًا كبيرًا وفرصة لعرض آرائنا دون حجر أو قسر فكري: **"والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين عملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر"**⁵⁵. فقيمة الإنسان كما أفهمها ليس في انتمائه الجغرافي ولا الديني ولا العنصري، وإنما في إيمانه بحقه وحق غيره في الحرية الفكرية والثقافية، وعمل صالحًا يصلحه ويصلح مجتمعه القريب والبعيد، ولكن الطريق يحتاج إلى هذا التواصي بالحق ومحاولة الوصول إليه عبر الصبر على مشاق الطريق. أما منطق النبوة والحب لله الذي قد يركز عليه أي منطق فكري معين فهو منطق فاشل، فهذا القول المجسد في هذه الصورة: **"قالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه"**⁵⁶، هو قول لا يراعي الشروط الموضوعية للنبوة الحقيقية والحبّ الجدير بالافتخار والاعتزاز، إذ واقعنا الفكري والثقافي المنبثق من أرضية عربية إسلامية يجسد هذه العقلية الشعرية الحاملة بأفق النبوة والمحبة دون مراعاة أدنى شروطها. فلو كان الواقع الفكري يجسد عمق هذه الصورة، لما رأينا كل مظاهر تخلفنا وانحدارنا الثقافي الضارب بجذوره على عقلياتنا: **"قل فلم يعذبكم الله بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق"**⁵⁷. فمظاهر تخلفنا هو انحدارنا عبر هذا المنطق واستعلاؤنا به من أجل تمرير قدسيتنا للعالم، الذي لا يؤمن إلا بمن يعمل صالحًا ويؤمن بقضايا الفكرية والإنسانية العادلة عبر التواصي بالحق.

⁵⁴- سورة غافر الآية 32

⁵⁵- سورة العصر الآية 1

⁵⁶- سورة المائدة الآية 18

⁵⁷- الآية السابقة

المراجع:

- ابن كثير، إسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، دار الحديث، ط5، 1998/1418
- أبو زيد، نصر حامد، النص السلطة الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1995
- البوطي، محمد سعيد رمضان، السلفية مرحلة زمنية مباركة، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2000/1421،
- البوطي، محمد سعيد رمضان، اللامذهبية أخطر بدعة تهدد العالم الإسلامي، مكتبة الفارابي، ط2،
- السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، ط1، 1983/1405
- الشوكاني، محمد بن علي، الرسائل السلفية، دار الكتاب العربي، ط1، 1991/1411
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار الكتب العلمية، ط1، 1992/1412
- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، ط4، 1997/1418
- العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار المنار، 1999/1419



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com